هرمان هيسّه

دميان

قصّة شباب إميل سنكلير

رواية

ترجمة :
مَمْدوح عُدوان

الدار

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية :

الطبعة العربية الأولى
١٩٨٩

جميع الحقوق محفوظة

دار منارات للنشر
ص.ب : ٩٢٥٠٦٢
هاتف : ٦٦١٣٢٨
عمّـان ـ الأردن

تصميم الغلاف : «منارات»
خطوط الغلاف زهير أبو شايب

ولد هرمان هيسه عام ١٨٧٧ في كالف، على حافة (الغابة السوداء).

أرسله ذووه الى مدرسة تبشيرية حيث كان من المفترض أن يدرس ليصبح رجل دين. ولقد أدّت عذاباته الدينية ومعاناته، التي قام بتسجيلها في معظم رواياته، الى هروبه من معهد مولبورن للاهوت عام ١٨٩١؛ إذ لم يتحقق له هناك الشفاء الروحي الناجع لدى لاهوتي ضليع مشهور ومؤمن، ووصل به الحد الى محاولة الانتحار.

وعمل إثر طرده من المدرسة العُليا في أكثر من مكتبة لسنوات عدة ـ وكان هذا هو العمل الذي مارسه، عادة، معظم الكُتاب الألمان الناشئين.

كتب في البداية ونشر مجموعة قصائد وخواطر ومقالات حول الموسيقى والأدب والفن، الى أن نشر روايته الأولى «بيتر كامينسند» (١٩٠٤) مصوراً فيها شاباً يرحل عن قريته الجبلية السويسرية ليصبح شاعراً. ثم اتبعها برواية «تحت العجلة» (١٩٠٦)، وهي حكاية تلميذ لم يكن ليتواصل على الاطلاق مع معاصريه وأبناء جيله، غادر مدرسته هارباً عبر مدن مختلفة.

ووقعت الحرب العالمية الأولى محدثةً صدمة مروعة، فانضم هيسه الى داعي السلام واللاعنف رومين رولاند ليشاركه في النشاطات المضادة للحرب ـ غير مكتف بكتابة الكراسات والروايات، بل قام بتحرير جريدتين مختصتين بأسرى الحرب الألمان.

وفشل زواج هيسه الأول خلال تلك المرحلة (انعكس هذا في روايتيه «كنولب» ـ ظهرت لها ترجمتان بالعربية، الأولى في بغداد لمحمد زفزاف والثانية في بيروت لكامل يوسف حسين ـ، و«روسشالد» ثم عكف على دراسة أعمال فرويد، وخضع في نهاية المطاف للتحليلات النفسية تحت اشراف يونغ، وأمضى بعض الوقت في احد المصحات للمعالجة

رحل عام ١٩١٩ الى سويسرا ليستقر هناك، ولينجز كتابة روا «دميان»، التي عكست استغراقه وانهماكه الكامل بآليات اللاوعي وبطرائق التحليل النفسي وشكّل الكتاب نجاحاً هائلا جاعلا من هيسه اسماً مشهوراً في كل أوروبا

حوّل عام ١٩٢٢ اهتمـامه نحو الشرق الذي زاره عدة مرات قبل الحرب، وكتب رواية عن بوذا بعنوان «سدهارتا» ـ دار منارات. عمان. ١٩٨٥ ترجمـة ممـدوح عدوان ـ وفي عام ١٩٢٧ كتب «ذئب البوادي» ـ دار ابن رشد. بيروت. ١٩٧٩ ترجمة النابغة الهاشمي ـ التي وصف فيهـا رجـلاً تتنازعه الغرائز الحيوانية من ناحية، وفروض الاحترام البورجوازي من ناحية أخرى. ثم نشر عام ١٩٣٠ «نرسيس وجولدماند»، التي أشير الى انها «أعظم روايات هيسه» ـ كما نوهت بذلـك النيويورك تايمز ـ ، والتي عالجت علاقة الصداقة القائمة بين كاهنين قروسـطيين /من القـرون الـوسـطى/ ، أحدهما قانع بدينه، والآخر متشكك بلانهاية وباحث عن السلام والخلاص من الخطيئة

نشـرت «رحلة الى الشرق» عام ١٩٣٢ ـ دار ابن رشد، بيروت. ١٩٨١ ترجمـة ممدوح عدوان ـ، ولم يظهر عمل أساسي حتى عام ١٩٤٣، حين أنجـز رائعتـه «لعبـة الكريات الزجاجية» ـ دار الكاتب العـربي القاهرة. لا ذكر لسنة النشر ترجمة د. مصطفى ماهر ـ، التي مكنته من نيل جائزة نوبل للأدب عام ١٩٤٦

عاش في عزلة تامة في مدينة مونتانيولا السويسرية حتى وفاته عام ١٩٦٢، إثر حلول عيد ميلاده الخامس والثمانين

«لم أكن أريد إلا أن أعيش وفق الدوافع التي تنبع من نفسي الحقيقية. فلم كان ذلك بهذه الصعوبة؟».

تمهيـــد

لا أستـطيع أن أروي قصتي دون العودة، طويلاً، إلى الوراء. ولو أمكن لعدت إلى ما هو أبعد ـ إلى السنوات الأولى لطفولتي، وحتى وراءها، إلى ماضي الأسلاف البعيد.

حين يكتب الـروائيون الروايات يميلون إلى اتخاذ موقف شبه رباني من موضوعاتهم، متظاهرين بالادراك الكامل للقصة، لحياة الإنسان التي، لذلك، يستطيعون اعادة حكايتها مثلما يستطيع الله ذاته ان يفعل، ودون أن يقف شيء بينه وبين الحقيقة العارية، القصة الكاملة التي تحمل المعاني في كُل تفصيل فيها، وأنا عاجز عن فعل ذلك عجز أي روائي، على الرغم من أن لقصتي من الأهمية، بالنسبة لي، ما يزيد على أهمية قصة أي روائي له ـ فهذه قصتي أنا، إنها قصة رجل، ليس مُخْتَرعاً ولا محتملاً ولا مُقَرَّباً من المثالية، ولا بالتالي، شخصاً غائباً، بل هي قصة كائن فريد من نوعه ومن لحم ودم. ولكن ما يتشكل منه الكائن البشري الحي الحقيقي يبدو أقل إمكانية للفهم، اليوم، منه في أي وقت سابق، والناس بالتـالي ـ الـذين يمثل كل منهم تجربة فريدة وقيمة في ما يتعلق بالطبيعة ـ يتم الإطلاق عليهم بالجملة اليوم. فإن لم نكن إلا كائنات بشرية فريدة، واذا كان من الممكن إنهاء كل منا برصاصة واحدة إلى الأبد، فإن حكاية القصص ستفقد كل

هدف لها. لكن كل انسان أكثر مما هو بنفسه؛ إنه أيضاً يمثل النقطة الفريدة، النقطة الخاصة جداً والهامة دائماً والمتميزة، التي تتشابك عندها ظواهر العالم، الأمر الذي يحدث مرة واحدة فقط بهذه الطريقة ثم لا يحدث بعدها أبداً. وهذا ما يجعل قصة كل إنسان هامة وخالدة ومقدسة، وهذا ما يجعل كل إنسان، طالما أنه يعيش وينفذ ارادة الطبيعة، مدهشاً وجديراً بكل تقدير. في كل فرد تحولت الروح الى لحم، وفي كل انسان يعاني الخلق، وفي اعماق كل شخص يُثبَّت الفادي على الصليب بالمسامير.

قلة من الناس، في أيامنا هذه، يعرفون ما هو الإنسان. وكثيرون يحسون بهذا الجهل فيموتون بسببه، بسهولة كبيرة، وبالطريقة ذاتها التي سأموت بها حالما أكمل هذه القصة.

وأنا لا أعتبر نفسي أقل جهلاً من معظم الناس. لقد كنت، وما زلت، باحثاً. لكنني توقفت عن توجيه أسئلتي إلى النجوم والكتب؛ وبدأت أصغي إلى التعاليم التي يهمس لي بها دمي. وقصتي ليست قصة مفرحة. فهي ليست بالقصة الحلوة أو المتوافقة، كما هو الحال في القصص المخترعة؛ إن لها طعم الهراء والتشوش، طعم الجنون والأحلام ـ مثل حياة كل من يتوقف عن خداع نفسه.

حياة كل إنسان عبارة عن طريق نحو نفسه، محاولة على طريق كهذا، تلميح نحو الممر. لم يسبق لانسان ان كان نفسه تماماً وبشكل كامل. لكن كل انسان يحاول ذلك ـ هذا بطريقة خرقاء وذاك بطريقة بارعة؛ كل حسب ما يستطيع وكل إنسان يحمل آثار ولادته ـ لُزوجة ماضيه البدائي وقشوره ـ وتظل معه حتى آخر أيامه. هناك من لا يصير بشراً أبداً، يظل ضفدعاً، سحلية أو نملة. وهناك من هو إنسان في نصفه الأعلى وسمكة في نصفه الأسفل. كل انسان يمثل مقامرة من قبل الطبيعة لخلق إنسان. ان لنا جميعاً أصلاً واحداً هو أمهاتنا؛ وجميعنا جئنا من الباب ذاته. لكن كلاً منا ـ بخبرات الأعماق ـ يجاهد للوصول إلى مصيره. يستطيع كل منا ان يفهم الآخر؛ لكن أياً منا لا يستطيع أن يشرح نفسه إلا لنفسه.

١ ـ عالمـــان

سأبدأ قصتي بتجربة حدثت معي وأنا في العاشرة عندما كنت في المدرسة اللاتينية في بلدتنا الصغيرة.

ما تزال حلاوة أمور عديدة في ذلك الحين تثير فيَّ الأسى؛ حارات معتمة وأخرى حسنة الإضاءة، بيوت وأبراج، أجراس ووجوه، غرف مترفة ومريحة، دافئة ومسترخية، غرف حبلى بالأسرار. كل شيء يحمل أريج الألفة الدافئة، والخادمات والأدوية المنزلية والفواكه المجففة.

عالمـا الليل والنهـار، عالمـان مختلفان جداً قادمان من قطبين متقابلين، وممتزجان في ذلك الحين. كان بيت والديَّ يشكل عالماً؛ لكن حدوده ضيقة، فهي لا تضم سوى الوالدين. وكان هذا العالم أليفاً بالنسبة لي في كل شيء تقريباً ـ أم وأب، حب وصـرامـة، سلوك مثـالي ومـدرسـة عالم من البهاء والنقاء والنظافة والأحاديث اللطيفة والأيدي المغسولة والملابس النظيفة والأخلاق الحميدة. ذلك هو العالم الذي كانت تُنشد فيه أناشيد الصباح ويحتفل فيه بأعياد الميلاد. خطوط وممرات مستقيمة تقود نحو المستقبل؛ كان هناك الواجب والذنب، الضمير الرديء والاعتـراف، الغفـران والقـرارات الصـائبة، الحب والاحترام والحكمة وكلمات

الإنجيل. فإذا كان المرء راغباً في حياة نظيفة ومنتظمة فانه واثق من تحقق ذلك في الارتباط بهذا العالم.

إلا أن العالم الآخر، الذي يتجاوز نصف بيتنا، كان مختلفاً جداً، رائحته مختلفة، ولغته مختلفة، يعد ويطالب بأمور مختلفة. كان هذا العالم الثاني يضم الخادمات والعمال وقصص الأشباح وشائعات المباذل. يسيطر عليه مزيج صاخب من الأشياء المريعة والخادعة والمخيفة والغامضة وبينها المسالخ والسجون، السكارى وبائعات السمك الصاخبات، بقرات تلد عجولاً، وخيول تموت غرقاً، وحكايات عن اللصوصية والقتل والانتحار. هذه الأمور الهمجية والشرسة، الجذابة والبشعة التي كانت تحيط بنا كان من الممكن العثور عليها في الحارة المجاورة وفي البيت المجاور. شرطة ومومسات، سكارى يضربون زوجاتهم، افواج من الفتيات يتدفقن من المصانع ليلاً، عجائز يعلقن التعويذة عليك لكي تمرض، لصوص يختبئون في الغابة، مشاغبون من محرقي البيوت تعتقلهم شرطة الأرياف، في كل مكان كان هذا العالم الثاني العنيف يبرز وتفوح رائحته، في كل مكان ما عدا في غرف والدينا وكان هذا حسناً وكان من المدهش ان السكينة والنظام والضمير الصالح المرتاح والتسامح والحب هي التي تسود في هذا العالم كما كان من المدهش ان البقية موجودة ايضاً، تفاقم الضجيج الفظ والنكد والعنف، الأمور التي يستطيع المرء ان يتجنبها، كلها، بقفزة الى حضن الأم.

غريب كم كان العالمان متجاورين ومتلاصقين! فمثلاً حين كانت لينا، خادمتنا، تجلس معنا على باب حجرة الجلوس عند صلوات المساء وتضيف صوتها الى الترنيمة، ويداها المغسولتان ملفوفتان في مئزرها المكوي، فإنها كانت تنتمي إلينا مع الأب والأم؛ إلى أولئك الذين يعيشون في النور والفضيلة. أما حين كانت، بعد ذلك، في المطبخ أو في سقيفة الحطب، تحكي لي حكاية «السنفور* الذي لا رأس له» أو حين كانت تتجادل مع نساء الجيران في دكان اللحام فقد كانت

* السنفور: شخص صغير جداً جداً

شخصاً آخر تنتمي الى عالم آخر يغلفها بالغموض. وهكذا كان كل شيء وخاصة أنا كنت انتمي إلى عالم النور والفضيلة كنت ابن والديَّ. ولكن أنّى تحولت كنت أرى العالم الآخر، وكنت أعيش في هذا العالم الآخر أيضاً على الرغم من انني كنت غريباً فيه وكنت أعاني فيه من الرعب ومن عذاب الضمير. وفي بعض الأحيان كنت أفضل أن أعيش في العالم الممنوع، وكانت العودة بين حين وآخر الى عالم النور ـ لانه يمكن ان يكون ضرورياً وطيباً ـ أشبه بالعودة الى شيء أقل جمالاً، شيء رتيب ومضجر. كنت، أحياناً، أثق ثقة مطلقة ان قدري هو أن اصبح مثل أمي وابي، ذا رؤية واضحة ونقياً منتظماً ومتفوقاً مثلهما لكن هذا الهدف كان يبدو بعيداً جداً، وكان الوصول اليه يعني الدخول في مدارس لا نهاية لها والدراسة وتقديم الامتحانات والاختبارات والنجاح فيها وهذا الطريق لا بد له أن يمر عبر العالم الآخر المعتم. ولم يكن من المستحيل على المرء ان يبقى جزءاً منه وأن يغرق فيه كانت هناك قصص عن أولاد ضالين، وهي قصص كنت أقرأها بشغف. وكانت هذه القصص، دائماً، تصور العودة الى البيت نوعاً من الخلاص وأنه أمر استثنائي حتى اقتنعت بأن هذا وحده هو الأمر الصحيح والأفضل والمطلوب. ولكن الجزء من القصة الذي يتعلق بالتواجد وسط الشر والضياع كان أكثر جاذبية، وأحياناً ـ لو استطعت الاعتراف ـ لم أكن أريد للابن الضال أن يندم وأن يتم العثور عليه من جديد. لكن المرء لا يجرؤ على التفكير في أمر كهذا، ولا يجرؤ، أكثر من ذلك، على البوح به. كان حاضراً كهاجس، أو كاحتمال في أعماق الوعي وحين كنت أصور الشيطان لنفسي كنت أستطيع بسهولة ان اتخيله في الشارع تحتنا، مقنّعاً أو دون قناع، أو في معرض الريف أو في بار ولكنه لم يكن أبداً معنا في البيت.

أخواتي، أيضاً، كن ينتمين إلى عالم النور. وكثيراً ما كان يبدو لي أن لديهن انجذاباً طبيعياً أكبر نحو أبي وأمي كن أفضل مني، أفضل أخلاقاً ولديهن أخطاء أقل. كانت لهن أخطاؤهن بالطبع؛ ولديهن لحظات الطيش، لكنها لم تكن تبدو

لديهن عميقة كما هو الأمر بالنسبة لي أنا الذي صارت علاقته بالشر تزداد لتصبح ضاغطة ومؤلمة، والذي كان العالم المعتم يبدو اقرب إليه. الأخوات، مثل الوالدين، يجب أن تتوفر لهن الراحة والاحترام ـ واذا ما تشاجرت معهن فقد كنت ألوم نفسي دائماً فيما بعد، وأحس بأنني المتسبب وبالتالي الطرف الذي عليه أن يطلب السماح. فبإزعاج أخواتي كنت أزعج والديَّ وأزعج كل ما هو خيّر وسامٍ كانت هناك أسرار يمكن ان أبوح بها لأحط أنواع المجرمين ولا أبوح بها لأخواتي. وفي الأيام الجميلة، التي لم يكن فيها ضميري يزعجني، كان من الممتع حتى أن ألعب معهن وأن أكون طيباً ومهذباً مثلهن وأن أرى نفسي في النور الكريم. وهذا ما لا بد أن يعنيه كونك ملاكاً. إنها أسمى حالة يمكن أن تخطر للمرء. ولكن كم كانت هذه الأيام قليلة. فحتى في اللعب، في النشاط غير المؤذي، كنت أتحول الى شخص شديد الحماس والجموح بحيث أصبح مرهقاً لاخواتي. وكانت الشجارات والتعاسات التي تؤدي إليها هذه الحالة تدفعني إلى هياج أصبح معه مخيفاً أفعل وأقول أموراً شريرة تزيد في قسوة قلبي حتى وأنا أقولها. ثم تأتي ساعات قاسية من الندم الحزين والأسف، واللحظة المؤلمة التي أطلب فيها الصفح لتأتي بها أشعة النور، والسرور الهادىء الشكور المتكامل.

كنت في المدرسة اللاتينية. وكان ابن المحافظ وابن مدير الحراج في صفي. وكانا يأتيان أحياناً لزيارتي في بيتي، وعلى الرغم من أنهما كانا عنيدين جامحين إلا أنهما كانا من أعضاء العالم الخير والشرعي غير أن هذا لا يعني أنه لم تكن لي علاقات بأبناء الجيران الذين يذهبون إلى المدرسة الشعبية والذين كنا ننظر اليهم من علٍ وبواحد من هؤلاء يجب ان أبدأ قصتي.

في أحد أيام العطل ـ كنت أقترب من العاشرة من العمر ـ كنت أتجول مع ولدين من أبناء الجيران عندما انضم الينا ابن الخياط وهو ولد أكبر منا بكثير وقوي وفظ، كان والده يسكر ولعائلته كلها سمعة سيئة. كنت قد سمعت الكثير عن فرانز كرومر وكنت أخافه ولم أكن أحب أبداً أن ينضم إلينا. كانت طباعه طباع رجل.

وكان يقلد عمال المصنع في مشيتهم وحديثهم. وتحت قيادته نزلنا الى ضفة النهر قرب الجسر واختبأنا تحت القنطرة الأولى ولم يكن في الممر الضيق بين الجدار المعقود للجسر والنهر الجاري بتكاسل الا النفايات والحراشف وكبب شائكة من الأسلاك الصدئة والفضلات الأخرى. بين حين وآخر كان من الممكن التقاط شيء ما مفيد هناك. وأمرنا فرانز كرومر أن نمشط المنطقة ونجلب له ما نعثر عليه. وكان يضع ما نقدمه له في جيبه أو يلقي به الى النهر. طلب الينا ان نبحث عن اشياء مصنوعة من الرصاص أو النحاس أو التنك كان يتلقفها منا ـ وبينها مشط عتيق مصنوع من قرن. كنت احس بالضيق من وجوده، ليس فقط لانني كنت اعرف أن أبي لن يوافق على رؤيتي معه؛ بل، ببساطة، لأنني كنت خائفاً من فرانز نفسه وذلك على الرغم من أنني كنت مسروراً من قبوله لي ومعاملته لي كالآخرين. كان يعطي التعليمات ونحن نطيع ـ وبدا كما لو أن الأمر كان مألوفاً منذ زمن بعيد على الرغم من انها المرة الأولى التي أكون فيها معه.

بعد فترة من الزمن جلسنا وبصق فرانز في الماء، وكان يبدو مثل رجل. كان يبصق من خلال ثغرة بين أسنانه فيصيب اي شيء يسدد إليه. وبدأ الحديث وراح الأولاد يتباهون ويكومون المدائح لأنفسهم على كافة بطولات اولاد المدارس وحيلهم التي كانوا يقومون بها ظللت هادئاً وظللت خائفاً من أن ينتبهوا الي، ومن أن يثير صمتي غضب كرومر. كان صديقاي قد بدآ يتجنبانني في اللحظة التي انضم فيها الينا فرانز كرومر. كنت غريباً بينهم وكنت احس أن طباعي وملابسي تشكل تحدياً. فكتلميذ في المدرسة اللاتينية، كإبن مدلل لأب حسن الحال، سيكون من المستحيل على فرانز ان يحبني، وشعرت بدقة أن الاثنين الآخرين سرعان ما سيتخليان عني ويهجرانني.

وأخيراً، وانطلاقاً من العصبية وحدها، بدأت أحكي قصة مثلهم. اخترعت قصة طويلة عن سرقة قمت فيها بدور البطل. قلت لهم انني في حديقة قرب المطحنة، وبرفقة أحد الأصدقاء، قمت بسرقة ما ملأ حقيبة من التفاح ذات ليلة،

وأنه لم يكن تفاحاً عادياً بل من أحسن الأنواع. خوف اللحظة ذاتها هو الذي ألجأني الى هذه القصة ـ فاختراع القصص وسردها أمران يأتياننى بسهولة. ولكي لا أعود بشكل مفاجىء الى الصمت، وربما أغرق في ما هو أسوأ، قدمت عرضاً كاملاً لقدراتي السردية. وتابعت: إنه كان على واحد منا ان يقف للحراسة بينما يتسلق الآخر الشجرة ويهزها لكي يسقط التفاح. وأكثر من ذلك صارت الحقيبة ثقيلة جداً مما اضطرنا لفتحها ثانية وترك نصف التفاح وراءنا. ولكن بعد نصف ساعة عدنا وأخذنا البقية.

وحين انتهيت رحت انتظر موافقة من أي نوع كان. لقد تحمست للموضوع حتى نهايته ونقلتني فصاحتي بعيداً ظل الصغيران صامتين ولكن فرانز كرومر تطلع اليّ بحدة بعينيه الضيقتين وسألني مهدداً:

ـ هل هي صحيحة؟

ـ نعم ـ أجبته.

ـ صحيحة وحقيقية؟

ـ نعم. صحيحة وحقيقية. قلت مصراً بعناد بينما كنت اغص بالخوف في أعماقي.

ـ هل تقسم على ذلك؟

ازداد خوفي فقلت: نعم.

ـ قل إذن: وحق الله وبركة روحي.

ـ وحق الله وبركة روحي. قلت.

قال طيب، والتفت عني.

ظننت ان المسألة قد سُويت وسررت حين نهض والتفت ينوي الذهاب الى بيته، وبعد أن تسلقنا الجسر عائدين قلت، متردداً، انني أود التوجه الى بيتي وحيداً.

ضحك فرانز وقال: «لا يمكن أن تكون مستعجلاً بهذا المقدار. نحن ذاهبون في الاتجاه ذاته أليس كذلك؟»

راح يمشي متمهلاً ولم أجرؤ على الإسراع. وكان، في الحقيقة، يتوجه نحو بيتي وحين وقفنا أمامه ورأيت المدخل والمطرقة النحاسية الكبيرة، والشمس في النوافذ والستارة في غرفة أمي تنفست الصعداء.

وحين فتحت الباب بسرعة وانسللت منه وأغلقته خلفي تسلل فرانز كرومر ورائي وفي الممر القرميدي البارد المواجه للباحة وقف الى جانبي وأمسك بي قائلاً: لا تكن متعجلاً هكذا

تطلعت اليه مذعوراً. كانت قبضته على ذراعي مثل الملزمة. استغربت ما الذي يمكن أن يكون قد دار في ذهنه وما اذا كان يمكن أن يؤذيني. وحاولت أن اتخذ قراري عما اذا كنت سأصرخ الآن؛ لو صرخت بحدة وبصوت عال فقد يأتي احدهم من الأعلى وبسرعة تكفي لانقاذي.

وسألته: ما الأمر؟ ماذا تريد؟

ـ لا شيء هام. أردت فقط أن أسألك عن شيء. يجب ان لا يسمعه الآخرون.

ـ صحيح ؟ لا اظن ان لدي شيئاً أقوله لك. أنت تعرف. عليّ أن أصعد.

وبنعومة سألني فرانز كرومر: انت تعرف من يملك البستان المجاور للمطحنة، ألا تعرف؟

ـ لست متأكداً. الطحان على ما اظن.

كان فرانز قد أحاطني بذراعه وشدني اليه بحيث اضطررت ان احدق الى وجهه على بعد إنشات. كانت عيناه تنضحان بالشر، وابتسم ابتسامة حاقدة. وامتلأ وجهه بالقسوة وباحساس بالقوة قال: أستطيع أن أخبرك من هو صاحب البستان. كنت أعرف منذ فترة ان هناك من سرق التفاح من هناك وقد قال الرجل الذي يملك

البستان أنه سيعطي ماركين لأي شخص يخبره عمن سرقه.

وهتفت: يا إلهي لن تفعل ذلك. هل ستخبره؟

شعرت أنه ليس مجدياً الاعتماد على شرفه. لقد جاء من العالم الآخر. والوشاية ليست جريمة بالنسبة له أحسست بذلك بدقة. فالناس في العالم الآخر ليسوا مثلنا في هذه الأمور.

ضحك كرومر: لا أقول شيئاً؟ يا ولد. ماذا تظنني؟ هل تظن أن لدي معمل نقود؟ أنا فقير. وليس لدي أب غني مثل أبيك واذا كنت أستطيع أن أكسب ماركين فانني سأكسبهما بأية طريقة أستطيع، بل ربما كان سيعطيني أكثر.

وتركني بغتة ولم يعد الممر يوحي بالأمان والطمأنينة بدأ العالم المحيط بي يتقوض سيسلمني للشرطة! أنا مجرم وسيتم ابلاغ والدي ـ بل ربما جاءت الشرطة نفسها ان رهبة التشوش تتهددني كل ما هو بشع وخطر يتوحد ضدي لم يعد يعني شيئاً كوني لم أسرق شيئاً لقد أقسمت أنني فعلت.

وتدفقت الدموع من عيني وأحسست أن علي أن اعقد صفقة ورحت أفتش جيوبي متلهفاً لم تكن معي أية تفاحة أو سكين جيب. ليس معي أي شي على الإطلاق. وفكرت بساعتي، ساعة فضية قديمة لم تكن تعمل وكنت ألبسها لمجرد اللهو. كانت ساعة جدتي وخلعتها بسرعة.

قلت كرومر. اسمع لا تش بي لن يكون لطيفاً منك أن تفعل ذلك. سأعطيك ساعتي كهدية. ها هي انظر اليها ليس لدي اي شيء غيرها. تستطيع ان تأخذها إنها من الفضة. أما عن دورانها فهناك عطل صغير فيها. سيكون عليك ان تثبتها

ابتسم وهو يزن الساعة في كفه تطلعت الى يده وشعرت كم هي وحشية وعدائية تجاهي، وكيف انها تستطيع ان تنال من حياتي وطمأنينتي

قلت متردداً: إنها من الفضة.

قال باحتقار: لست مهتماً بساعتك القديمة والفضية. خذها وثبتها لنفسك.

وهتفت وأنـا ارتعـد خوفاً من ان يهرب: ولكن يا فرانز انتظر. انتظر لحظة. لم لا تأخذها؟ إنها فعلاً من الفضة. بشرفي. وليس لدي اي شيء غيرها.

ألقى علي بنظرة احتقار باردة:

أنت تعرف إلى أين أستطيع أن أذهب. أو ربما ذهبت الى الشرطة ان علاقتي جيدة بالرقيب.

والتفت كأنه ينوي الذهاب. فتمسكت بكمه. لم يكن في وسعي ان اسمح له بالذهاب أُفضل أن أموت على أن أواجه ما قد يحدث لو انه ذهب الآن.

وتوسلت اليه بصوت جعله التوتر أجش: فرانز! لا تقم بأي عمل طائش. انك تمزح فقط. أليس كذلك؟

ـ نعم. أنا أمزح لكنها قد تصبح مزحة باهظة الثمن.

ـ قل فقط ما المفروض ان افعله يا فرانز. سأفعل أي شيء تطلبه

تمـلاني صعـوداً ونزولاً بعينيه الضيقيتين ثم ضحك مرة أخرى وقال بمرح زائف: لا تكن غبياً أنت تعرف، كما أعرف، أنني في وضع يمكنني من كسب ماركين. وأنا لست الغني الذي يستطيع ان يتخلى عنهما، ولكن انت غني ـ حتى ان لديك ساعة. كل ما عليك ان تفعله هو أن تعطيني ماركين. وعندها ينتهي الأمر.

فهمت حجتـه ولكن ماركان! هذا مبلغ كبير وصعب الحصول عليه مثل العشرة والمئة والالف. ليس معي بفنغ* واحد. وكانت لدي حصالة تحتفظ امي بها لي وحين كان الاقرباء يأتون لزيارتنا يلقون فيها بقطع من ذات الخمسة او العشرة بفنغات. هذا كل ما لدي ولم يكن لي مصروف مخصص في ذلك الحين.

قلت بحزن: ولكن ليس معي شيء. ليس معي مال أبداً. سأعطيك كل

جزء المئة من المارك

شيء لدي. لدي قصص كاوبوي، وجنود من المعدن وبوصلة. انتظر. سأجلبها لك.

ولم يفعل كرومر شيئاً سوى أن برم فمه بنخرة قصيرة. ثم بصق على الأرض.

وبفظاظة قال: أبقِ تفاهاتك معك. بوصلة! لا تجنني. هل تسمع؟ انا اسعى الى المال.

ـ ولكن ليس معي، ولم يسبق ان كان معي لا يد لي في الأمر.

ـ طيب. ستجلب الماركين غداً إذن. سأنتظرك بعد المدرسة قرب السوق. انتهى الموضوع. وسترى ما سيحدث ان لم تجلبهما.

ـ ولكن من اين سأحصل عليهما ان لم يكن معي؟

ـ يوجد الكثير من المال في منزلكم. وهذه مشكلتك. غداً، وبعد المدرسة. وأقول لك: ان لم تجلبهما معك. » وألقى عليّ نظرة ناعسة ثم بصق مرة أخرى واختفى كأنه خيال.

لم استطع حتى الصعود على الدرج. لقد تحطمت حياتي. فكرت في الهرب وعدم الرجوع أو اغراق نفسي الا انني لم استطع ان اتمثل أياً منهما بوضوح. وفي الظلام جلست في اسفل السلم، أقلب الأمر وقد أسلمت نفسي للبؤس. وهناك عثرت عليّ لينا وأنا أبكي فيما كانت نازلة ومعها سلة لجلب الحطب.

توسلت إليها أن لا تشي بي ثم صعدت السلم. الى يمين الباب الزجاجي عُلِّقت قبعة والدي ومظلة والدتي الشمسية. كانتا تمنحانني إحساساً بالبيت والراحة فيخفق لهما قلبي شاكراً مثلما يمكن للابن الضال ان يحيّي منظر الغرف القديمة الأليفة ورائحتها. ولكن هذا كله ضاع مني الآن. كله ينتمي الى عالم أبي وأمي الواضح الوضاء؛ وأنا، المدان الغارق في اعماق العالم الغريب الآخر، والواقع في شرك المغامرات والخطيئة يطاردني عدو ـ اخطار ومخاوف وخزي. القبعة والمظلة

والباب ذو الحجر الرملي الذي كنت مغرماً به، والصورة الكبيرة المعلقة فوق خزانة الصالون، وصوت اختي الكبرى الذي يأتيني من غرفة الجلوس هذا كله صار أكبر تأثيراً ولذة مما سبق ان كان عليه لكن هذا كله لم يعدملجأ أو مستنداً يُعتمد عليه صار هذا كله تأنيباً واضحاً، لم يعد في هذا كله شيء يخصني ولم اعد قادراً على المشاركة في البهجة المريحة التي يشيعها. وكانت قدماي موحلتين فلم استطع حتى مسحهما بالممسحة. وحيثما اذهب تتبعني عتمة لم يكن هذا العالم البيتي يعرف عنها شيئاً، كم من الأسرار صار لدي؛ وكم تعرضت للخوف ـ ولكن ذلك كله كان لعب اولاد بالمقارنة مع ما جاء معي، اليوم، إلى البيت. كانت التعاسة تتملكني وتطاردني؛ وحتى أمي لم تكن قادرة على حمايتي خاصة وأنها لم تكن قادرة على ان تعرف شيئاً عن الموضوع. وسواء كانت جريمتي هي السرقة أم الكذب (ألم أحلف بالله وبكل ما هو مقدس يميناً كاذبة؟) فهي جريمة روحية. لم تكن جريمتي شيئاً محدداً في هذا الأمر أم ذاك بل في انني صافحت الشيطان. لم ذهبت؟ لم أطعت كرومر ـ أكثر مما اطعت حتى أبي؟ لم اخترعت القصة فألصقت بنفسي جريمة وكأنني أدعي بطولة؟ لقد أمسك الشيطان بي بين برائنه، والعدو يطاردني الآن.

حتى الآن لم أكن خائفاً مما قد يحدث غداً مثلما كنت خائفاً من اليقين المرعب من أن طريقي، من الآن فصاعداً، سيقودني أعمق فأعمق في عالم الظلمة. وشعرت بأن ذنوباً جديدة لابد لها أن تنبع من هذا الذنب، وأن وجودي بين اخواتي، وتحيتي لوالديَّ، وقبلاتي لهما مجرد كذبة، وبأنني أعيش كذبة مخبأة في أعماقي.

لفترة قصيرة تصاعد الأمل والثقة في نفسي وأنا أنظر الى قبعة والدي. سأقول له كل شيء وسأتقبل حكمه وعقوبته وسأجعله مخلصي ومتلقي اعترافاتي. لن يكون الأمر إلا كفارة من النوع الذي طالما اضطررت اليه؛ الساعة المرهقة والطلب الصعب المؤسف للصفح.

كم كان هذا يبدو سهلاً ومغرياً، ولكنه غير مجدٍ. كنت أعرف انني لن أقوم بذلك. وكنت أعرف ان لدي الآن سراً، خطيئة سيكون عليّ التكفير عنها بنفسي. ربما كنت أقف على مفترق طرق، وربما كنت قد انتميت، كلياً وإلى الأبد، للأشرار، اشاركهم اسرارهم واتكل عليهم وأطيعهم وصار لزاماً عليّ ان أصبح واحداً منهم. لقد مثلت دور الرجل والبطل وعليّ الآن ان اتحمل النتائج

سررت حين وبخني والدي بسبب حذائي الموحل. لقد حول هذا الأمر انتباهه، بتجنب المشكلة الحقيقية ووضعي في حالة تلقي التأنيب الذي كنت أحوله سراً الى الذنب الآخر الأكثر خطورة وجدية. ومن هذه الزاوية سيطر عليّ احساس جديد وغريب كان يخزني بشكل ممتع وهو انني متفوق على والدي! وللحظة أحسست بشيء من القرف من جهله. فتوبيخه لي على حذائي الموحل كان أمراً يدعو الى الرثاء. «آه لو كنت تعرف» عبرت الفكرة في ذهني مثل مجرم يُستجوب من أجل رغيف مسروق بينما هو قد ارتكب جريمة قتل. كان شعوراً عدائياً كريهاً، لكنه شعور قوي وجذاب يشدني نحو سري وذنبي وخطر لي ان كرومر ربما قد ذهب الى الشرطة الآن وأبلغ عني، وان زوابع تتجمع الآن فوق رأسي بينما هم يعاملونني الآن وكأنني طفل.

كانت هذه اللحظة أهم وأشد رسوخاً من كل ما في التجربة. انها أول صدع في صورة أبي الشاملة، وأول تشقق في الأعمدة التي تقوم عليها طفولتي؛ الأعمدة التي يجب على كل إنسان أن يهدمها قبل أن يصير نفسه ان الخط الداخلي الأساسي لمصيرنا يشتمل على تجارب شبيهة غير مرئية. وهذه التصدعات والشقوق تتجمع وتشفى ثم تنسى، ولكن في الأعماق الخفية تظل حية وتظل تنزف.

وسرعان ما خفت من هذا الشعور حتى أوشكت على الوقوع امام والدي لتقبيل قدميه طالباً السماح لكن الانسان لا يستطيع أن يعتذر عن أمر جوهري. والطفل يشعر بذلك ويعرفه مثله مثل اي شيخ حكيم.